لغة الخطاب الصوفي في فكر ابن عطاء الله السكندري.

ميلود ربيعي،
المركز الجامعي غرداية.

تمهيد:

إن علم التصوف قد استقل بلغة خاصة هي لغة الذوق والرمز (بن بريكة، م. 2007. 1 :63)، فكما أن للمتكلمين مصطلحهم الكلامي، وللفقهاء مصطلحهم الفقهي، وللأصوليين مصطلحهم الأصولي، فقد كان للصوفية مصطلحهم الصوفي، ثم إن التصوف ليس بديلا عن الكتاب والسنة، بل هو مشيد بالكتاب والسنة كما قال الإمام الجنيد، وإنما كشف التصوف عن عمق في الفهم لا تحتمله العبارات ولا تصلح له عموم العقول، ثم إن هذا الفهم الصوفي ليس هو من التكليف في شيء بل هو فضل الله يؤتيه من يشاء، ومن ثم سوف نتعرض في هذا البحث إلى طبيعة الخطاب الصوفي وتفريعات ذلك في فكر ابن عطاء الله السكندري(ت709 هـ) ـ صاحب الحكم العطائية ـ عموما من خلال مؤلفاته، ثم امتلاك ابن عطاء الله للغة الصوفية الإشارية، وقدرته على فك إشكالاتها في تفسير نصوص القرآن، ونصوص الحديث، وما أشكل من أقوال أهلها، وانتظمت مادة هذه الدراسة في ثلاثة مطالب : فالمطلب الأول تعلق بمسائل في طبيعة لغة الخطاب الصوفي، والمطلب الثاني تعلق بمسائل في الفهم العميق للخطاب القرآني، وأما المطلب الثالث فقد جاء في الفهم الإشاري للنصوص وشرحه.

المطلب الأول :مسائل في الخطاب الصوفي .

1. قصور اللغة عن حمل المعرفة الصوفية:

تتضمن اللغة الصوفية المصطلح الصوفي والشطح والرمز والحرف والحكمة والتفسير، ولكن التعقيد هو سمتها لطبيعتها الذوقية (بن بريكة، م. 2007. 1 :71) .

يقول أبو العلا العفيفي : (إن لغة المنطق قاصرة عن أن تعبر على تلك المعاني الذوقية التي يدركها الصوفي في أحوال وجده فليس لديه إلا لغة الإشارة والرمز ولغة الخيال والعاطفة، يومئ بها إيماءاً إلى تلك المعاني التي لا يدركها على حقيقتها إلا من ذاق مذاق القوم وجرب أحوالهم).(عفيفي، أبو. 1980. 1 :53).

فالمعرفة الصوفية موضوعها هو الذات الإلهية من حيث صفاتُها وأسماؤها وأفعالها، ومن ثم فإن معرفة وجود الله تعالي تقصر دونها مدارك البشر، سواء حساً أم عقلاً أم قلباً، لأنها مدارك محدودة، ولذا قال ابن عطاء الله :« المعرفة بالله أعسر المعارف، وإدراك موضوعها على التحقيق من الأمور التي يقصر دونها البشر» (بن عطاء الله، تا. القصد المجرد. 2005 : 38) .

وبهذا يقطع ابن عطاء الله أن المعرفة الصوفية من حيث الموضوع أشد ما تكون غموضا، ولا يمكن الوصول إلى شيء من التفصيل في ذلك، ما لم يتأت بسلوك طريق التصوف وذلك لخصوصيات منها:

- أن الحقائق التي تتكشف للصوفي في خلواته حقائق فردية، لا يمكن بحال أن تتصف بالعموم.

- ما يتحدث عنه الصوفي من المعارف يكون بلغة الرمز والإشارة لعدم وفاء الألفاظ للمعاني العادية فضلا عن معارف الصوفي .
- يغلب على عبارة الصوفي الإبهام والتعقيد، مما يتعذر على الإنسان العادي أن يشارك الصوفي في تذوق ما يعبر عنه من معارف ولو شيء من التفصيل.

ومن ثم فإن اللغة عاجزة بألفاظها أن تحمل المعاني التي يفهمها أهل التحقيق، وما أودع الكتب منها إنما هي قطرات من بحور، ويؤكد ذلك ابن عطاء الله بما سمعه من شيخه فيقول :« ولقد سمعت شيخنا أبا العباس المرسي رضي الله تعالى عنه يقول: جميع ما في كتب القوم، عبرات من سواحل بحر التحقيق ».(بن عطاء الله، تا. لطائف المنن.2005 : 6)

كما يؤكد ابن عطاء الله أن الصوفية لا يحرصون على تأليف الكتب بل يشتغلون بتربية الرجال، فقد سئل شيخ شيخه أبي الحسن الشاذلي، «فقيل له: لم لا تضع كتاباً في الدلالة على الله تعالى وكتب القوم؟، فقال رضي الله تعالى عنه: كتبي أصحابي» (ابن عطاء الله، تا. لطائف المنن. 2005: 6)، وكذلك أبو العباس المرسي لم يضع كتاباً في ذلك، ويعلل ابن عطاء الله ذلك فيقول:« والسبب في ذلك أن علوم هذه الطائفة علوم التحقيق، وهي لا تحتملها عقول عموم الخلق » (بن عطاء الله، تا. لطائف المنن. 2005: 6)، وحقا ما يقول ابن عطاء الله فقد وجدنا من ألفوا كتبا في هذا الشأن مثل الحلاج وابن عربي وعبد الكريم الجيلي، لم تستطع عقول غيرهم (أي غير الصوفية) فهمها، حتى لجأ بعض العلماء إلى تأويل عباراتهم، وذهب بعضٌ آخر إلى التشنيع عليهم، فهذا الشيخ "عبد العزيز الدباغ" المجموع كلامه في كتاب "الإبريز"، وهو مجموعة من المسائل التي طرحها عليه تلميذه العالم "أحمد بن المبارك" فأجابه بما كشف له، وعلى قدر ما تحتمله العبارة، وفي ذلك يقول: (هذا آخر ما أردنا جمعه من الآي التي فسرها الشيخ رضي الله عنه، وبقيت آيات أخرى بعضها سيأتي في أثناء الكتاب في المواضع التي تناسبه، وبعضها لم نستوعب فيها مراده رضي الله عنه، فلم أكتبها لذلك وبعضها فيها أسرار عرفانية لا تكتب).(ابن المبارك، أ. 2006: 153)

2. تفاوت الدلالة حسب الفهم:

أ. معنى الفهم:

يقرر ابن عطاء الله أن وجود العبارة من نعم الله على عباده، ويقصد بالعبارة اللغة التي يتخاطب بها الناس، غير أنه يقرر مع ذلك أن الفهم يتفاوت فيه المخاطبون على درجات كبيرة على حسب الاستعداد، فهناك فهم سطحي، وهناك فهم عميق يتفاوت فيه المخاطبون وخاصة كلام أولياء الله تعالى، لأنهم ورثة النبوة التي من مظاهرها جوامع الكلم، ثم إن الولي لا يتكلم إلا بإذن ولذلك ينفذ كلامُه، وتحلو في الأسماع عبارتُه،

وفي ذلك يقول ابن عطاء الله:« من أجلّ مواهب الله لأوليائه وجود العبارة، ويجب أن يُفهم: أن من أُذن له في التعبير، تهيأت في مسامع الخلق عبارتُه وحَلِيت لديهم إشارتُه»(ابن عطاء الله، تا. لطائف المنن.2005: 37)، ثم يقرر ابن عطاء الله صفات أهل الفهم عن الله فيقول عنهم :« فأهل الفهم أخذوا عن الله وتوكلوا عليه فكانوا بمعونته لهم، فكفاهم ما أهمهم، وصرف عنهم ما أغمهم، واشتغلوا بما أمرهم عما ضمن لهم، علما منهم بأنه لا يكلهم إلى غيره، ولا يمنعهم من فضله، فدخلوا في الراحة ووقفوا في جنة التسليم ولذاذة التفويض، فرفع الله بذلك مقدارهم وكمل أنوارهم» (ابن عطاء الله، تا. تاج العروس. 2005: 33).

ب- أثر الفهم :

للفهم السليم والعميق أثر في حمل الأعباء والتخفيف من أثقال التكاليف، وإنما يتعب الناس أو يرتاحون حسب فهمهم، وفي ذلك يقول ابن عطاء الله :« **التاسع: وهو "إنما قواهم على حمل أثقال التكاليف، ورود أسرار التصريف"**: وذلك: لأن التكاليف شاقة على العباد، ويدخل في ذلك امتثال الأوامر، والانكفاف عن الزواجر، والصبر على الأحكام، والشكر عند وجود الإنعام، فهي إذن أربعة: طاعة، ومعصية، ونعمة، وبلية. وهي أربع لا خامس لها: ولله عليك في كل واحدة من هذه الأربع عبودية يقتضيها منك بحكم الربوبية.

فحقه عليك في الطاعة: شهود المنة منه عليك فيها.

وحقه عليك في المعصية: الاستغفار لما ضيعت فيها.

وحقه عليك في البلية: الصبر معه عليها.

وحقه عليك في النعمة: وجود الشكر منك فيها.

ويحمل عنك أعباء ذلك كله: الفهم. وإذا فهمت أن الطاعة راجعة إليك وعائدة بالجدوى عليك، صبرك ذلك على القيام بها. وإذا علمت أن الإصرار على المعصية والدخول فيها، يوجب العقوبة من الله آجلا، وانكشاف نور الإيمان عاجلا، كان ذلك سببا للترك منك لها. وإذا علمت أن الصبر تعود عليك ثمرته، وتتعطف عليه بركته، سارعت إليه، وعولت عليه. وإذا علمت أن الشكر يتضمن المزيد من الله لقوله تعالى: (لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ)(سورة إبراهيم الآية7)، كان ذلك سببا لمثابرتك عليه، ونهوضك إليه»(ابن عطاء الله،تا. 1998. التنوير:9).

ج- لكل قوم ما فهموا :

يبين ابن عطاء الله أن الخاصة إذا سمعوا لفظ (هو)، لم يسبق إلى فهمهم غير ذكر الحق تعالى لغلبة شهوده في قلوبهم، فيقول :« فإن ذكر (هو) عندهم لم يسبق منه إلى فهمهم غير ذكر الحق، فيكتفون به عن كل بيان يتلوه، وذلك لتمكن معرفتهم، وسعة علمهم، وقوة إدراك فهمهم، واستكمالهم في حقائق القرب، واختصاصهم بصفاء ضمائر القلب، واستيلاء ذكر الحق على أسرارهم، واستغراقهم بإفراد الاسم المفرد في أذكارهم»(ابن عطاء الله، تا. القصد المجرد. 2005: 6).

كما يستفيد ابن عطاء الله من المخارج الصوتية في لفظ (هو)، ومن صفات حرف(الهاء)، فيقول:« فإن هجاء (هُ) إذا مُكِّنَتِ الضمة من الهاء حرفان: (هاء) و (واو).

فالهاء تخرج من أقصى الحلق، وهي من حروفه، والواو تخرج من الشفة، فهو مجموع بين ابتداء أول المخارج وانتهاء آخرها. وفي ذلك إشارة إلى إثبات وجود موجود معلوم، الذي هو ضد النفي المعدوم، وتنبيه إلى ابتداء كل حادث منه، وانتهائه إليه، وليس له هو ابتداء. والهاء هي من حروف الحلق، التي لا تنطبق عليها اللهوات ولا تنضم عليها الشفتان» (بن عطاء الله، ت. القصد المجرد. 2005: 6). فتراه يشير إلى أن لفظ (هو) الذي يفهم منه الخاصة أنه يدل على الله تعالى، ولا يفهمون منه غير هذه الدلالة، إنما ركب من حرفين أحدهما ابتداء المخارج(الهاء) وآخرهما انتهاء المخارج(الواو) وقد جمع ما بينهما من الحروف وما تتركب منه، أي جمع دلالة اللغة المركبة من هذه الحروف، وفي صفة (الهاء) إشارة أخرى، وهي أنها لا تنطبق عليها اللهاة ولا تُضَمُ عليها الشفتان، مما يدل على إطلاقها وعدم حدوديتها، والدالة عليه (ليس لأوليته ابتداء ولا لآخريته انتهاء، فهو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية) (بن أبي زيد، ق. الرسالة. 2005: 6) قال تعالى :(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ) (سورة الحديد الآية 3).

3. المسموع واحد وتتعدد أفهام السامعين :

يؤكد ابن عطاء الله أن تعدد الفهوم من مسموع واحد واقع، تبعا لاستعداد السامع فيقول :« ويكفيك في هذا أن ثلاثة سمعوا مناديا يقول : (آ يا ساع تري بري) ، ففهم كل منهم عن آلة مخاطبة خوطب بها في سره، فسمع واحد : (اسع ترى بري)، وسمع الآخر : (الساعة ترى بري)، وسمع الآخر: (ما أوسع بري)، فالمسموع واحد واختلفت أفهام السامعين، كما قال سبحانه:(يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ)(سورة الرعد الآية 4)، وقال سبحانه:(قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ)(سورة البقرة الآية 60)»(بن عطاء الله، أ. لطائف المنن. 2005: 109).

فنجد ابن عطاء الله يوظف ذلك المعنى الحسي المفهوم من الآية، وهو سقي نفس نوع الشجر بنفس نوع الماء ومع ذلك يتفاضل في الطعم، والآية الثانية التي تدل أن المخاطب يستند في فهم الخطاب إلى مرجعية سابقة له في تكوينه، وإلا أبهم الخطاب في فهمه حتى يتوقف، ثم يفسر ابن عطاء الله في المثال السابق وجه تعدد الفهم لدى السامعين مع أن المسموع واحد فيقول:« فأما الذي سمع (اسع ترى بري) فمريد دُلَّ على النهوض إلى الله بالأعمال ليستقبل الطريق بالجِدِّ، وقيل له: (اسع إلينا بصدق المعاملة ترى برنا بوجود المواصلة)، وأما ما على قلبه لما أحرقه نار الشغف (الساعة ترى بري)، وأما الآخر فعارف كشف له عن وسع الكرم فخوطب من حيث يشهد فسمع (ما أوسع بري)»(بن عطاء الله، أ. لطائف المنن. 2005: 109).

4. قد يُفهمُ من اللفظ عكسَ قصدِ المتكلم :

يواصل ابن عطاء الله تلك الفكرة القاضية بأن الخطاب يفهم من سامعه على حسب استعداد السامع ومرتبته، وقد يخالف فهم السامع قصد المتكلم وفيما يلي مثالين لذلك :

المثال الأول :« وربما فهموا من اللفظ ضد ما قصده واضعه، كما أخبرنا الشيخ الإمام مفتي الأنام تقي الدين محمد بن علي القشيري، قال : كان ببغداد فقيه يقال له ابن الجوزي يقرأ اثني عشر علما فخرج يوما قاصدا إلى المدرسة فسمع منشدا ينشد شعرا:

إذا العشرون من شعبان ولت فواصل شرب ليلك بالنهار

ولا تشرب بأقداح صغار فقد ضاق الوقت عن الصغار

فخرج هائما على وجهه حتى أتى مكة، فلم يزل مجاورا بها حتى مات» (بن عطاء الله، تا. لطائف المنن. 2005: 110).

ففي هذه القصة سمع ابن الجوزي الأبيات ففهم منها فهما إشاريا يناسب حاله من فوات العمر وسرعة إدراك الأجل، فخرج متجها إلى البيت الحرام رافضا كل ما في يده، من أجل أن يشتغل ما بقي من عمره في العبادة حتى مات، فتغييرُ مسارِه، بناه على فهم فهمه لم يوجه له فيه الخطاب.

المثال الثاني :« قرئ على الشيخ مكين الدين الأسمر قول القائل:

لوكان لي مسعد بالراح يسعدني لما انتظرت بشرب الراح إفطارا

الراح شيء شريف أنت شاربه فاشرب ولو حملتك الراح أوزارا

يا من يلوم على صهباء صافية كن في الجنان ودعني أسكن النار

فقال إنسان هناك : لا يجوز قراءة هذه الأبيات، فقال الشيخ مكين الدين للقارئ : اقرأ هذا رجل محجوب »(بن عطاء الله، تا. لطائف المنن. 2005: 109).

ففي هذه القصة سمع ابن الأسمر الأبيات وفهم منها ما يناسب مقامه ويحقق مطلوبه، من ذكر الحضرة الإلهية ومحبتها ويدل عليها لفظ " الراح"، فحال من يشرب كأس المحبة فتسكنه نار الشوق كحال من يشرب الخمر فيصلى نار الآخرة، وبهذا يكون فهم مكين الدين بن الأسمر حسب استعداده.

5. إنشاء معجم اصطلاحات للصوفية :

قد وضع أئمة التصوف تعريفات لمصطلحاتهم، لتقريب معناها لمن جاء بعدهم، فهي وإن كانت محصلةَ تجربةٍ ذوقيةٍ ذاتيةٍ فإنها ليست مستعصية على العقل بإطلاق(بن بريكة، م. موسوعة الطرق الصوفية.2007. 1: 88)، وهذا ما فعله جماعة من الصوفية في كتبهم كـ"القشيري" و"أبي حامد الغزالي" و"محي الدين بن عربي"، فقد خصصوا فصولا لشرح الدلالة العلمية لمصطلحاتهم، وأمست تلك المصطلحات سمة علم التصوف فإذا وجدت ألفاظا مثل :(السلوك والجذب والحال والمقام والمحو والفناء والبقاء....) فإنك في محور علم التصوف (بن بريكة، م. موسوعة الطرق الصوفية.2007. 1: 88)، وقد ذكر "القشيري" غايتين لهذا الاصطلاح الصوفي هما: الكشف عن المعاني الخاصة، وستر الحقيقة الصوفية عن الأجانب عن التصوف(القشيري، م. الرسالة.2007. 31).

ولقد ظهرت معاجم متخصصة تعتني بالمصطلح الصوفي، منها "المعجم الصوفي" لـ "سعاد الحكيم"، وقد قصرته على المصطلح الصوفي عند الشيخ "محي الدين بن عربي" ولا يتعداه إلى غيره، ومنها "الموسوعة الصوفية" لـ"عبد المنعم الحنفي"، (وفيها ما يفيد الباحث العلمي المتخصص)(بن بريكة، م. موسوعة الطرق الصوفية.2007. 1: 89)، وآخرها صدورا الجزء الأول والثاني من "موسوعة الطرق الصوفية " بعنوان "الإيضاح والبيان لمصطلح أهل العرفان : المعجم الصغير" لـ"محمد بن بريكة " وقد قسمها إلى ثلاث أنواع فقال: (أجدني أمام ثلاثة ألوان من المصطلحات: البسيط والمتقابل والعرفاني الخاص، أشرحها فيما يستقبل من الصفحات)(بن بريكة، م. موسوعة الطرق الصوفية.2007. 1: 92).

وأفرد "عاصم إبراهيم الكيالي " بعد شرحه لثلاثين حكمة مختارة من حكم "ابن عطاء الله السكندري" فهرسا لمصطلحات الصوفية عند ابن عطاء الله مرتبة حسب

حروف المعجم تبعا لورودها في الحكم(الكيالي، عا. شرح ثلاثين حكمة.2003: 135)، وكان عمله ترتيب للمصطلحات الواردة في "الحِكَم" ترتيبا ألف بائيا، ثم الدلالة على رقم الحكمة التي تضمنت المصطلح ثم شرحه حسب وروده عند الشراح أو من مؤلفات ابن عطاء الله، وقد استغرقت عدد صفحاتها خمسة وستين صفحة، ابتداء بمصطلح الآثار وانتهاء بمصطلح اليقين.

المطلب الثاني : مسائل في الفهم العميق للخطاب القرآني .

1. تفاوت الناس في فهم الخطاب:

يؤكد ابن عطاء الله أن التفاوت في الفهم واقع في نصوص القرآن الكريم، فالنص واحد والفهم يتفاوت وربما يتعاكس، ويضرب لذلك أمثلة في الجيل الأول الذي تلقى القرآن وهم الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، وفيما يلي تفصيل ذلك :

- المثال الأول: قوله تعالى :(وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ، فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ)(سورة الذاريات الآية 22)، وعنها يقول ابن عطاء الله :« فهذه الآية سرت أقواما، وأخجلت آخرين. أما الذين سرتهم: فهم في المقام الأول إذ يزيد بها إيمانهم، ويَرسَخُ بها إيقانُهم فينتصروا بها على وساوس الشيطان، وشكوك النفس .

وأما الذين أخجلتهم: فإنهم علموا أن الحق سبحانه وتعالى علم منهم عدم الثقة، ووجود الاضطراب فأقامهم مقام أهل الشك، فأقسم لهم فأخجلهم ذلك حياء منه، وذلك مما أفادهم الفهمُ عنه»(ابن عطاء الله، أ. التنوير. 1998: 82)، ثم يقرر ابن عطاء الله مبدأ تفاضل الأفهام حسب واردات الإلهام فيقول:« ورب شيء واحد أوجب سرور أقوام وحزن آخرين، على حسب تفاضل الأفهام، وواردات الإلهام» (ابن عطاء الله، تا. التنوير. 1998 : 82)، ومعنى واردات الإلهام ما يرد على القلب من الخواطر المحمودة من غير تعمل العبد.

- المثال الثاني: قوله تعالى:(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً)(سورة المائدة الآية 3)، يثبت ابن عطاء الله أن هذه الآية فرح بها الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، وحزن بها أبو بكر رضي الله عنه، لأنه فهم منها نعي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبكى لأن الشيء إذا استتم خيف عليه التراجع إلى وجود النقصان (ابن عطاء الله، تا. التنوير.1998: 82).

ثم يعلل ابن عطاء الله سبب هذا الفهم النافذ عند أبي بكر لسر وقر في قلبه اختصه الله به فيقول:« واعلم أن الأمر لا يتناقص ما دام الرسول صلى الله عليه وسلم حياً، وفرحُ الصحابة رضي الله عنهم أجمعين لظاهر البشارة التي فيها، ولم ينفذوا إلى ما نفذ إليه أبو بكر رضي الله عنه، فظهر لذلك سر قوله صلى الله عليه وسلم: (ما سبقكم أبو بكر بصوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر في صدره)، والذي كان سابقاً هو بعينه الذي أوجب أن يفهم ما لم يفهم غيره» (ابن عطاء الله، تا. التنوير.1998: 82).

- المثال الثالث: قوله تعالى:(إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ)(سورة التوبة الآية 111)، في هذه الآية يثبت ابن عطاء الله أنه استبشر بها قوم، وخجل منها آخرون، من خلال ما سمعه من الشيخ المرجاني فيقول:« وسمعت الشيخ أبا محمد المرجاني رحمه الله يقول: (قوم سمعوا هذه الآية الكريمة، فاستبشروا بهذه المبايعة، فابيضت وجوههم سرورا بها، إذ أهلهم الحق أن يشتري منهم، وإذْ أجلَّ أقدارَهم، إذ رضيهم للشراء، وسرورا بالثمن الجليل، والثواب

الجزيل. وقوم اصفرت وجوههم خجلا من الله تعالى، إذ اشترى منهم ما هو مالكه، فلولا أنه علم منهم وجود الدعوى الكامنة في أنفسهم ودعوى المالكية منهم لها، لما قال:(إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ). فكان للذين ابيضت وجوههم جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وكان للذين اصفرت وجوههم جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما)، ثم يتابع ابن عطاء الله تأييد كلام الشيخ المرجاني فيبين وجه استثناء الأنبياء والمرسلين من عقد الشراء قائلا :« فلو سلم المؤمنون من بقايا المنازعة، ما أوقع عليهم مبايعة ولذلك قال الله تعالى:(إن الله اشترى من المؤمنين....) ولم يقل:من الأنبياء والمرسلين »(ابن عطاء الله، تا. التنوير.1998: 82).

ثم يستشهد ابن عطاء الله بتقسيم الشيخ "أبي الحسن الشاذلي" للنفوس من حيث وقوع عقد الشراء عليها فيقول:« ولذلك قال الشيخ أبو الحسن رحمه الله: النفوس على ثلاثة أقسام: نفس لا تشتري لخستها، ونفس تشتري لكرامتها، ونفس لا يقع عليها الشراء لثبوت حريتها.

فالأولى: نفوس الكافرين، لا يقع عليها الشراء لخستها.

والثاني: نفوس المؤمنين، وقع عليها الشراء لكرامتها.

والثالث: نفوس الأنبياء والمرسلين، لم يقع عليها الشراء لثبوت حريتها »(ابن عطاء الله، تا. التنوير.1998: 82).

2. عمق الفهم في النص القرآني:

لا يقصد بالفهم هنا سطحي المعني، وفك ألفاظ الخطاب، بل يراد بذلك عمق المعنى، ولا يستند فيه إلى العقل وحده بل إلى الإيمان وقوة نوره في القلب، وفيما يلي نتبين عمق النص القرآني:

يؤكد ابن عطاء الله أن الفهم عن الله تعالى، اختصاص من الله تعالى، فيقول مترجما ذلك بلغة المناجاة من الحق تعالى لعبده :« أيها العبد: أمرتك بخدمتي، وضمنت لك قسمتي، فأهملتَ ما أمرتُ وشككتَ فيما ضمنتُ، ولم أكتفِ لك بالضمان حتى أقسمتُ، ولم أكتفِ بالقسم حتى مثَّلتُ، وخاطبتُ عبادا يفهمون، فقلت:(وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ، فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ)(سورة الذاريات الآية 22).

ولقد اكتفى بوصفي العارفون، واحتال على كرمي الموقنون، فلو لم يكن وعدي لعلموا أني لا أقطع عنهم واردات رفدي، ولو لم يكن ضماني لوثقوا بوجود إحساني، وقد رزقت من غفل عني وعصاني، فكيف لا أرزُق من أطاعني ورعاني؟ » (ابن عطاء الله، تا. التنوير.1998: 122)، ومحل الشاهد في كلام ابن عطاء الله قوله :«وخاطبت عبادا يفهمون فقلت »، مما يدل على أن الخطاب القرآني موجه لأهل الفهم عن الله، وهذا ما دلت عليه نصوص أخرى منها قوله تعالى:(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)(سورة النحل الآية 12)، وقوله تعالى:(وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ)(سورة العنكبوت الآية 43)، وقوله تعالى:(فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ) (سورة الطلاق الآية 10)، وغيرها .

3. أهل المعرفة يفهمون الخطاب القرآني بمجموعه:

يقرر ابن عطاء الله أن أهل الفهم يتعلمون من خلال فهمهم الصحيح للآيات الطريق الموصل إلى رضا الله في كل ما ينزل بهم، ويضرب مثلا بقوله تعالى:(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ

وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ)(سورة طه الآية 132)، فيقول:« اعلم أن الآية علَّمَت أهل الفهم عن الله، كيف يتطلبون رزقه، فإذا توقفت عليهم أسباب المعيشة أكثروا من الخدمة والموافقة، لأن هذه الآية دلتهم على ذلك، فجاء الوعد بالرزق بعد أمرين: أحدهما: أمر الأهل بالصلاة، والآخر: الاصطبار عليها، ثم بعد ذلك قال(نحن نرزقك)، ففهم أهل المعرفة بالله، أنه إذا توقفت عليهم أسباب المعيشة، قرعوا باب الرزق بمعاملة الرزَّاق، لا كأهل الغفلة والعمى إذا توقفت عليهم أسباب الدنيا ازدادوا كدحا فيها، وتهافتا عليها بقلوب غافلة، وعقول عن الله ذاهلة»(ابن عطاء الله، تا. التنوير.1998: 76).

يتابع ابن عطاء الله الاستدلال لما فهمه أهل المعرفة بنصوص أخرى من القرآن تؤيد فهمهم فيقول:« وكيف لا يكون أهل الفهم عن الله تعالى كذلك، وقد سمعوا الله تعالى يقول:(وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا)(سورة البقرة الآية 189)، فعلموا أن باب الرزق طاعة الرزَّاق، فكيف يُطلَبُ منه رزقُه بمعصيتِه، أم كيف يستمطر فضله بمخالفته؟ وقد قال عليه الصلاة والسلام: (إنه لا يُنالُ ما عند الله بالسَّخط) ، أي لا يُطلَبُ رزقُه إلا بالموافقة له، وقال سبحانه وتعالى مبينا لذلك:(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)، وقال تعالى: (وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً) (سورة الجن الآية 16).

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن التقوى مفتاحُ الرزقَين: رزقَ الدنيا ورزقَ الآخرة، كما قال تعالى:(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم)(سورة المائدة الآية 65.66)، فبين سبحانه وتعالى أنهم لو أقاموا التوراة والإنجيل، أي عملوا بما فيهما لأكلوا من فوقهم، ومن تحت أرجلهم، أي لوسعنا عليهم أرزاقهم وأدمنا عليهم إنفاقنا، لكنهم لم يفعلوا ما نحب، فلأجل ذلك لم نفعل بهم ما يحبون» (ابن عطاء الله، تا. التنوير.1998: 76).

المطلب الثالث :الفهم الإشاري للنصوص .

1. الفهم الإشاري يفتح لبعض الناس دون بعض:

أورد ابن عطاء الله أن الفهم العميق قد يفتح لبعض الناس دون بعض، واستدل بما فهمه الأعرابي من قوله تعالى:(وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ، فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ)(سورة الذاريات الآية 22.23)، فقال مترجما لمعنى الآية :« أي، يا هذا المتطلعُ للرزقِ من المخلوقِ الضعيف العاجز في الأرض، ليس رزقُك عنده وإنما رزقُك عندي وأنا الملكُ القادر، ولأجل هذا إنه لما سمع بعض الأعراب هذه الآية نحر ناقته، وخرج فارا إلى الله تعالى وهو يقول:(سبحان الله، رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض).

فانظر رحمك الله كيف فهم عن الله أن مراده بهذه الآية، أن يدفعَ همم عبادِه إليه، وأن تكون رغبتهم فيما لديه، كما قال في الآية الأخرى:(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ)(سورة الحجر الآية21)»(ابن عطاء الله، تا. التنوير.1998: 79)، فامتاز هذا الأعرابي بفهم عميق في الآية، ترجمه إلى عمل سريع نافذ.

2. ضرورة بيان ما أشكل من أقوال العارفين :

لقد وُجِدَ من العارفين من كان مترجما لغة الإشارة إلى لغة العبارة، تقريبا للأفهام ودفعا لسوء الظن بأهل الإشارة، ودفعا لما يتوهم إنكارُه مما يُفهم من ظاهرِ الألفاظ، ومن

هؤلاء "أبو القاسم القشيري" إذ عقد فصلا من رسالته بيَّن فيه ما أشكلَ فهمُه ..، وتصدى "عبد الوهاب الشعراني" لبيان ما أشكل من تآليف "محي الدين بن عربي" منها كتابه "الكبريت الأحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر"، وهذا ما وجدت ابنَ عطاء اللّه يُضمِّنُه كتابَه "لطائف المنن" أثناء ترجمته لمناقب شيخه "أبي العباس المرسي"، إذ عقد فصولا يبسط فيها ما أشكل فهمه من كلام "أبي العباس المرسي" في القرآن والحديث وكلام أهل الحقائق فقال :«فإني قصد أن أذكر فيه جملا من فضائل سيدنا ...أبي العباس المرسي ... وما قاله في تفسير آية من كلام اللّه عز وجل، وإظهار لمعنى خبر نقل عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، والكلام على حقيقة نقلت عن أحد من أهل الطريق، وأشكل معناها ولم يفهم مغزاها»(ابن عطاء اللّه، تا. لطائف المنن.2005:6). وقد رتب ذلك في أبواب بعناوينها فقال:«الباب الخامس : في آيات من كتاب اللّه تعالى تكلم على تبيين معناها وإظهار فحواها . الباب السادس: فيما فسره من الأحاديث النبوية وإبداء أسرار فيها على مذهب أهل الخصوصية. الباب السابع: في تفسيره لما أشكل من كلام أهل الحقائق، وحمله لذلك على أجمل الطرائق »(ابن عطاء اللّه، أ. لطائف المنن. 2005 6:).

3. الفقه الحقيقي هو الفهم العميق الصحيح :

ينطلق ابن عطاء اللّه من قوله تعالى:(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ، مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)(سورة الذاريات الآية 56)، ليؤسس للفهم الصحيح الذي هو حق اللّه تعالى على العباد أن يعبدوه ويوحدوه، وهو سر الخلق والإيجاد ويضرب لذلك مثلا بحال "إبراهيم بن أدهم" فيقول :« وفي تبيين سر الخلق والإيجاد، إعلام للعباد، وتنبيه: لماذا خلقوا؟ كي لا يجهلوا مراد اللّه تعالى فيهم، فيضلوا عن سبيل الهداية، ويهملوا وجود الرعاية، فبين الحق تعالى: أنه ما خلق العباد لأنفسهم إنما خلقهم ليعبدون ويوحدوه، فانك لا تشتري عبدا ليخدم نفسه، إنما تشتريه ليكون لك خادما.

فهذه الآية: حجة على كل عبد اشتغل بحظ نفسه عن حق ربه، وبهواه عن طاعة مولاه، ولذلك سمع إبراهيم بن أدهم - رحمه اللّه عليه، وهذا كان سبب توبته - لما خرج متصيِّدا، سمع هاتفا يهتف به من قربوس سرجه يا إبراهيم، ألهذا خلقت؟ أم بهذا أمرت. ثم سمع الثانية: يا إبراهيم. ما لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت، فالفقيه من فهم سر الإيجاد فعمل له، وهذا هو الفقه الحقيقي الذي من أعطيه فقد أعطى المنة العظمى»(ابن عطاء اللّه،تا. التنوير. 1998: 68).

ثم يواصل ابن عطاء اللّه بسط هذا المعنى مستدلا بقول الإمام "مالك بن أنس" وقول "أبي العباس المرسي" فقال:« وفيه قال مالك رحمه اللّه: ليس الفقه بكثرة الرواية، وإنما الفقه نور يضعه اللّه في القلب، وسمعت شيخنا أبا العباس رحمه اللّه يقول: (الفقيه من انفقأ الحجاب عن عيني قلبه). فمن فقه عن سر الإيجاد بأنه ما أوجده إلا لطاعته، وما خلقه إلا لخدمته، كان هذا الفقه منه سببا لزهده في الدنيا، وإقباله على الأخرى، وإهماله لحظوظ نفسه، واشتغاله بحقوق سيده، مفكرا في المعاد، قائما بالاستعداد حتى قال بعضهم: (لو قيل لي غدا تموت لم أجد مستزاد). فهؤلاء قوم أذهل عقولهم عن هذه الدار ترقبُ هول المطلع، وأهوالُ القيامة، وملاقاةُ جبار السموات والأرض، فغيبهم ذلك عن

الاستيقاظ لملاذ هذه الدار، والميل إلى مسراتها»(ابن عطاء الله، تا. لطائف المنن.2005 : 68).

4. فهم النص القرآني بمحض النور:

كلام الله تعالى نور، ولذلك انفرد بعض الصوفية في تفسيرهم بتسمية "التفسير بمحض النور"، وقد وجدت هذا المعنى عند ابن عطاء الله وعنه يقول: (إذ الأمر أوسع من ذلك، ولكن بحسب ما ناول الغيب، وأنعم به المولى سبحانه وتعالى، وهو كلام صاحب الأنوار المحيطة. فما يأخذ الآخذ منه إلا على حسب نوره، ولا يأخذ من جواهر بحره إلا على قدر قوة غوصه، وكل يفهم على حسب المقام الذي أقيم فيه: (يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ)(سورة الرعد الآية 4). وما لم يأخذوه أكثر مما اخذوا، واسمع قوله عليه الصلاة والسلام: (وأوتيت جوامع الكلم، واختصر لي الكلام اختصارا). فلو عبر العلماء بالله أبد الآباد، عن أسرار الكلمة الواحدة من كلامه، لم يحيطوا بها علما، ولم يَقدِرُوا لها فهما)(ابن عطاء الله،تا. التنوير. 1998: 68). كما ظهر ذلك في كلام سيدي "عبد العزيز الدباغ" إذ يقول في تفسير قوله تعالى:(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)(سورة الحج الآية 52) لما سئل عن نورها فقال: (نورها الذي تشير إليه أن الله تعالى ما أرسل من رسول ولا بعث نبيا من الأنبياء إلى أمة من الأمم إلا وذلك الرسول يتمنى الإيمان لأمته ويحبه لهم ويرغب فيه، ويحرص عليه غاية الحرص، ويعالجهم أشد المعالجة، ومن جملتهم نبينا صلى الله عليه وسلم، فمعنى (تمنى) أي تمنى الإيمان لأمته، وإلقاء الشيطان فيها يكون بما يلقيه في قلوب أمة الدعوى من الوساوس الموجبة لكفر بعضهم، ويرحم الله المؤمنين فينسخ ذلك من قلوبهم، ويحكم فيها الآيات الدالة على الوحدانية والرسالة) (ابن المبارك، أ.2006 : 270). ثم يدل "صاحب الإبريز" في موضع آخر على أن أهل الأنوار تفسيرُهم مرتكزٌ أساسا على أسباب النزول، ويقصدون بها الأحوال الباطنة للنبي صلى الله عليه وسلم وقت النزول فيقول: (وأهل الفتح رضي الله عنهم إذا تعاطوا تفسير القرآن فيما بينهم، لم يكن لهم هم إلا أسباب النزول، وليس المراد بها أسباب النزول في علم الظاهر، بل الأحوال التي تكون عليها ذات النبي صلى الله عليه وسلم وقت النزول، فيسمع منهم في ذلك ما لا يكيف)(ابن المبارك، أ. الإبريز.ط1. 2006: 302). ووجدت كذلك الشيخ "أحمد بن مصطفى العلاوي المستغانمي(ت1934م)"، يفسر بالنور في تأليف سماه "البحر المسجور في التفسير بمحض النور"، متدرجا في تفسير الآية على ما يقتضيه مفهوم اللفظ وظاهر المعنى، ثم أتبع ذلك بما يستنبط من أحكامها، ثم ما تعطيه الإشارة بلسان الخصوصية، ثم يختم بكلام أخص مما قبله بعنوان(لسان الروح) غير أن الأجل توقف به في هذا "البحر المسجور"، عند قوله تعالى:(ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير)(سورة البقرة الآية 106).

الخاتمة:

بعد هذا العرض لتصور ابن عطاء الله للغة الخطاب الصوفي إذ هي وسيلة التعبير للمعاني الصوفية التي تعتمد الذوق تبين لنا جملة من النتائج نجملها فيما يلي:

- ابن عطاء الله حلقة من الحلقات في سلسة الترجمة للخطاب الصوفي فقد كان من قبله كثير منهم الإمام "الجنيد" وجاء من بعده كثير منهم "أحمد بن مصطفى العلاوي" مرورا بـ"عبد الوهاب الشعراني".
- الفهوم تتفاوت حسب الاستعداد في لغة الخطاب العادي فضلا عن النص القرآني.
- عمق النص القرآني جعل الفهم فيه لا يتحدد، وإنما ينال منه المتلقي حسب ما ناوله صاحب الغيب، وحسب دائرة الأنوار المحيطة به.
- لغة الخطاب الصوفي تتميز بالإشارة لضعف تحمل العبارة، وغيرة من أهلها أن ينالها من ليس على درجتهم.

ثبت المراجع والمصادر

ابن المبارك، أحمد .(2006). الإبريز من كلام العارف بالله تعالى سيدي عبد العزيز الدباغ، ضبطه وصححه عاصم إبراهيم الكيالي، ط 1. بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن بريكة، محمد. (2007). موسوعة الطرق الصوفية الإيضاح والبيان لمصطلح أهل العرفان، ط 1. الجزائر : دار الحكمة.

ابن عطاء الله، أحمد تاج الدين السكندري .(1998). التنوير في إسقاط التدبير. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن عطاء الله، أحمد تاج الدين السكندري .(2005). تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس. ط1. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

ابن عطاء الله، أحمد تاج الدين السكندري .(2005). لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن ، ط2. بيروت : دار الكتب العلمية.

ابن عطاء الله، أحمد تاج الدين السكندري. (2005). القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد ، ضبطه وصححه مرسي محمد علي، ط 3. بيروت: دار الكتب العلمية.

عاصم الكيالي، إبراهيم.(2003). اللطائف الإلهية في شرح مختارات من الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري، ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.

عفيفي، أبو العلا (1980م). مقدمة فصوص الحكم لابن عربي، ط 1. بيروت : دار الكتاب العربي.

القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن. (2003) , الرسالة القشيرية في علم التصوف , ط2. القاهرة : دار السلام.

القيرواني، ابن أبي زيد.(2005). الرسالة الفقهية، مؤسسة الرسالة .